بالابداع . فالثقافة ليست عالما غائما من الصور المثالية التي لا يستوعبها أحد ، وليس المثقف هو الذي يكتب ، بل المثقف هو من يبحث عن عضويته ، داخل الممارسة الجماهيرية التي تصنع التاريخ وكل مجد ثقافي .

يمكن تحليل علاقة محمود بالموت ، من خلال اكثر قصائده شعبية « الشهيد »(٣) . ففي هذه القصيدة اكثر من مستوى دلالي واحد :

يشير مطلع القصيدة الى المستوى الغالب فيها . فالموت هو مؤشر **ارادي** . تنبع هذه الارادية من طبيعة اطاره — الصراع — فحين يكون هناك صراع وطني لم تتبلور بعد ملامحه بشكل كامل ، تصبح ارادية الاختيار عاملا اساسيا . فالشهيد يختار الموت .

« سأحمل روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق ... واما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان ... ورود المنايا ونيل المنى »

هذا هو المدخل الاساسي ، الاقبال على الموت ، الموت هو بهذا المعنى حدث اجتماعي — سياسي — جماعي . ليس فيه أي اقتراب من مستوى القلق الذي اصبح عنوان شعر الموت الفردي . انه هنا مجرد فعل متكامل . فالفرد في داخله ليس حاسما . الحاسم هو الموضوع نفسه . الموت . لذلك تأتي الاوصاف التي يطلقها الشاعر على « نفس الشريف » وكأنها اوصاف للموت ولا علاقة للشهيد بها ، فالشهيد يأخذ اوصاف الموت حين يموت . هنا يتأكد العنصر الدلالي الاساسي في هذه القصيدة . فالدلالة تأتي من الفعل وليس من علاقة تضاد او توازٍ جامد ، لكن هذا المستوى الغالب الذي يؤكد عليه مطلع القصيدة ، يتحول الى وعي مأساوي حاد . فالشاعر حين يرى مقتله دون النصر الذي يبتعد يقوم بصياغة صراخه المأساوي في وجه الحياة ، ليأتي هذا الصراخ موقفا يمتليء بمأساوية فجوات الموت . فحين لا يستطيع الموت أن يمتليء بمداليل صراخ شعبي نضالي ، يتحول هذا الصراخ الى فعل لتدمير الذات ، تبلغ ذروتها في هذا الوصف لجسد الشهيد :

« وجسم تجدل فوق الهضاب ... تناوشه جارحات الفلا
فمنه نصيب لاسد السماء ... ومنه نصيب لاسد الثرى
وعفر منه بهي الجبين ... ولكن عفارا يزيد البها
وبان على شفتيه ابتسام ... معانيه هزء بهذي الدنا »

هذا المؤشر الثاني ، المليء بمأساوية مواجهة الموت ، ليس مؤشرا فرديا . فحين تصرخ ذاكرة عبد الرحيم محمود « فيعلم قومي اني الفتى » تلقي بظلالها كاملة على دلالات القصيدة تشير الى مستوى ثالث هو مستوى دور الذاكرة الثقافية — الشعرية في طبع هذا الشعر . لكننا هنا لا نزال امام حس مأساوي تتبلور في داخله ارادة جماعية يستطيع الشعر استشراف مضامينها بوصفه صداها الاساسي . فالجسد الذي ترسمه القصيدة ، هو جسد جماعي ، يأخذ طابعه الفردي لضرورات متعددة : دور الشاعر والمدى الذي يستطيع فيه التأثير بشكل حاسم . وهو كذلك يرفع مستوى الصراع الى الدلالة المأساوية التي عرفها الفلسطيني في سلسلة طويلة من تراكم موت بدا مجانيا ، لكنه في تراكمه يؤسس خطا جديدا في ممارسة بدايات نهضة حقيقية .

هذه المستويات الثلاثة في الموت عند عبد الرحيم محمود تؤكد دلالة مركزية ، حولها يجري تمحور الدلالات الاخرى . فنحن أمام مواجهة للموت من طبيعة جماعية ، لذلك